



على فدي جعفر الطيار لا للتقية المنلوكة!

محمد أبو سلطان



موقع رؤى ومحاضرات الشيخ الحبيب
al-qatrah.net

alqatrah@gmail.com 

@Sheikh_alHabib 

syalhabib 

+447999997975 

+441753355355 

تقديم

في زمن تتكاثر فيه الشبهات وتُدان فيه الجهر والصراحة في العقيدة تحت ذريعة «الوحدة الإسلامية»، ترتفع أصوات بعض العمام متهمة أهل العالم الأول بأنهم سبب تفرّق هذه الأمة وانقسامها، غافلين عن أن الجهر بالبراءة والصراحة في الموقف هي من سيرة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام؛ وإن أدى ذلك إلى تفرق الأمة، كما سيأتي.

وهذا الكتاب - الذي بين يديك - يأتي ردًا على هذه الشبهة المتكررة، من خلال تناول جانبٍ من سيرة سيدنا جعفر الطيار عليه السلام وهجرته إلى الحبشة، وذلك في محاضرة منبرية ألقيت في ذكرى شهادته عليه السلام على منبر مسجد السبط الثالث المحسن الشهيد عليه السلام، سنة 1446 هـ. ولأهمية الموضوع قررت ككتاب، مع بعض الإضافة والتنقيح.

إثارة الفرقة: منطقٌ يُعاد تدويره!

من جملة الأمور التي يُشكّلُ بها بعض الناس، وبعض أصحاب العمام من العوالم الأخرى، على منهجية أهل العالم الأول^(١)، ما يتعلّق بمسألة تفرقة الأمة، إذ يقولون: إنكم بجهركم بالبراءة وبهذه الصراحة إنما تتسبون في الفرقة بين المجتمعات الإسلامية وانقسامها وتشرذمها.

والجواب عن هذه الإشكالية لا يحتاج إلى كثير مؤونة، فالله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الحكيم: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾^(٢)، أي: إنّ الناس كانوا أمةً واحدة، لكن على ماذا؟

(١) هم أولئك الذين يعتقدون بالتشيع بلا انحرافات، وأن للتقية مواردها الشرعية الخاصة، فلا ينبغي أن يبالغ فيها وتطبّق في غير مواردها بما يؤدي إلى الذل. راجع المقال التالي: <https://al-qatrah.net/ns201>

(٢) سورة البقرة: 214 - بحسب الترتيب الراجح.

على الباطل والضلال! فبعث الله النبيين صلوات الله عليهم مبشرين ومنذرين، حتى حدثت الفرقة بين تلك المجتمعات، وبين تلك الأقوام.

والقرآن الحكيم ذكر لنا شاهداً على ذلك في قصة نبينا إبراهيم عليه السلام حين كسر الأصنام ووقعت الفرقة بينه وبين قومه^(١)، وهذه سيرة كل الأنبياء الذين أرسلهم الله تبارك وتعالى، فإنهم قد أدّوا نفس هذا الدور! ونحن إنما نقتفي آثار أولئك الأنبياء صلوات الله عليهم.

وقد قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له: «ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آبائنا وأبنائنا وإخواننا وأعمامنا ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً»^(٢).

ومما يستفاد من هذا القول العلوي أنّ هذه التفرقة وهذا الانقسام إنما هو أمرٌ بسيطٌ جداً إذا ما قيس بما هو أعظم، وهو القتال، حين يقتل الأخ أخاه، أو يقتل الأب ابنه، وما ذلك إلا من أجل إفراز الحق عن الباطل.

(١) سورة الممتحنة: ٥ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة الخامسة والخمسون.

فينبغي استيعاب هذه المسألة جيدًا، وإدراك أن هذه التفرقة إذا كانت في سبيل تمييز الحق عن الباطل، فهي محمودّة، سواء أدت إلى سفك الدماء أم لم تؤدّ.

لا للتفرقة: منطق الطغاة!

إنّ هذه الكلمة التي يردّها بعض المعتمدين: «أنتم تسبّبون التفرقة»، ليست منطقًا إسلاميًا سليمًا، إذا ما أريد بها السكوت عن الباطل، بل هي منطق الظالمين الذين واجهوا دعوات الأنبياء والمصلحين بهذا الاتهام. فما من نبيٍّ، ولا من مصلحٍ خرج بدعوة إصلاحية، إلا وجّه بذات المنطق: «إنك تسبّب التفرقة، وتشقّ صفّ الأمة!» كما سيتبين ذلك، فترقب.

فإذا كانت هذه الأمة مجتمعةً على باطل، فماذا علينا أن نفعل؟ أليس الواجب، بل المتحتم علينا أن نتكلم ونبين الحقائق حتى يتميز الحق عن الباطل؟ فإن من طبيعة دعوات الإصلاح هي فرز الخبيث عن الطيب.

ثم تأمل في نتائج هذه الدعوات: نتيجة الدعوة الإسلامية، ونتيجة دعوات باقي الأنبياء عليهم السلام في مثل هذه المواقف، كلّها دعوات إصلاحية، ومخرجاتها إيجابية، حتى وإن أدت إلى سفك الدماء في بعض الموارد فذلك أمرٌ طبيعيٌّ جدًّا في سبيل إقامة الحق ودحض الباطل.

من سيرة جعفر الطيار عليه السلام

وللرد على الشبهة المثارة والتي قدمناها؛ سنتناول شخصية جعفر ابن أبي طالب عليه السلام وقصة هجرته إلى الحبشة، ولكن قبل كل ذلك نقول أن

شخصية جعفر عليه السلام من الشخصيات العظيمة في التاريخ الإسلامي، وهو من أوائل الذين آمنوا بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

وتذكر الروايات أن أبا طالب صلوات الله عليه مرّ فرأى النبي صلى الله عليه وآله وعلياً عليه السلام يُصلّيان، وعليّ عن يمينه، فقال لابنه جعفر عليه السلام : «صِل جناح ابن عمّك، وصلّ عن يساره»⁽¹⁾.

بل وأعظم من ذلك؛ فإن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبيّه في شأن جعفر عليه السلام ، كما ورد في الرواية التي نقلها شيخنا الصدوق رضوان الله عليه بسنده عن جابر بن يزيد الجعفي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أوحى الله تعالى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أني شكرت لجعفر بن أبي طالب أربع خصال، فدعاه النبي صلى الله عليه وآله فأخبره، فقال - جعفر - : لو لا أن الله تبارك وتعالى أخبرك ما أخبرتك، ما شربتُ خمرًا قط، لأنني علمتُ أني إن شربتها زال عقلي، وما كذبتُ قط، لأنّ الكذب ينقص المروءة، وما زنيْتُ قط، لأنني خفتُ إذا عملتُ عُمل بي، وما عبدتُ صنماً قط، لأنني علمتُ أنه لا يضرُّ ولا ينفع .

(1) أسد الغابة ج 1 ص 287 وغيره.

فضرب صلى الله عليه وآله على عاتقه: حقُّ الله تعالى أن يجعل لك جناحين تطير بهما مع الملائكة في الجنة»^(١).

وكان جعفر من أوائل من هاجر إلى الحبشة بعد أن أودى النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه في مكة المكرمة على يد مشركي قريش، حيث وجه صلى الله عليه وآله جعفرًا ومعه جماعة من المؤمنين إلى أن يهاجروا إلى الحبشة، وذلك كما ورد في تفسير الآية القرآنية: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٢).

روى الشيخ علي بن إبراهيم القمي في سبب نزول هذه الآية: «لما اشتدت قريش في أذى رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه الذين آمنوا به بمكة قبل الهجرة أمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله أن يخرجوا إلى الحبشة، وأمر جعفر بن أبي طالب عليه السلام أن يخرج معهم، فخرج جعفر ومعه سبعون رجلاً من المسلمين حتى ركبوا البحر، فلما بلغ قريش خروجهم بعثوا عمرو بن

(١) علل الشرائع ج ٢ ص ٥٥٨.

(٢) سورة المائدة: ٨٣

العاص وعمارة بن الوليد إلى النجاشي ليردوهم، فوردوا على النجاشي وقد كانوا حملوا إليه هدايا فقبلها منهم، فقال عمرو بن العاص أيها الملك إن قوما منا خالفونا في ديننا وسبوا آلهتنا وصاروا إليك فردهم إلينا، فبعث النجاشي إلى جعفر فجاءوا به، فقال يا جعفر ما يقول هؤلاء؟ - وفي رواية: قال جعفر لمن معه: لا يتكلم أحد منكم، أنا خطيبكم اليوم -⁽¹⁾. فقال جعفر أيها الملك وما يقولون؟ قال يسألون أن أردكم إليهم، قال أيها الملك سلهم أعبيد نحن لهم؟ فقال عمرو لا بل أحرار كرام، قال فسلهم ألهم علينا ديون يطالبوننا بها؟ قال لا مالنا عليكم ديون، قال فلكم في أعناقنا دماء تطالبوننا بها؟ قال عمرو لا، قال فما تريدون منا آذيتونا فخرجنا من بلادكم، فقال عمرو بن العاص أيها الملك خالفونا في ديننا وسبوا آلهتنا وأفسدوا شبابنا وفرقوا جماعتنا».⁽²⁾

وكما تلاحظون منطلق عمرو بن العاص وقوله في جعفر الطيار عليه السلام ومن معه من المهاجرين قد «فرقوا جماعتنا»؛ هو نفس منطلق

(1) الخرائج والجرائح للراوندي ج 1 ص 133.

(2) تفسير القمي ج 1 ص 177.

تلك العمام التي تعترض على منهجية أهل العالم الأول وقولهم الذي مر عليكم، إنه منطق المشركين آنذاك!

والمضحك أن ابن العاص يقول أنهم «أفسدوا شبابنا»! وكأنهم كانوا على الإيمان والهدى! ما كانوا يشربون الخمر، ويرتكبون الفواحش، ويفعلون المنكرات!

وكما أشرنا آنفاً عن غاية بعثة الأنبياء ﷺ، ومنهم خاتمهم الرسول الأكرم ﷺ، الذين بعثوا ليحدثوا هذا الشرخ الإيجابي في المجتمع، شرخاً يميز بين الحق والباطل، بين الإيمان والنفاق.

وهذا ما يؤكده عمرو بن العاص بقوله أنهم: «خالفونا في ديننا، وسبوا آلهتنا، وأفسدوا شبابنا، وفرّقوا جماعتنا».

فما كان من جعفر الطيار عليه السلام أن قال: «نعم أيها الملك خالفناهم بأنه بعث الله فينا نبياً أمر بخلع الأنداد، وترك الاستقسام بالأزلام، وأمرنا بالصلاة والزكاة، وحرم الظلم والجور، وسفك الدماء بغير حقها والزنا

والربا والميتة والدم، وأمرنا بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى».

أقول: نعم، ونحن على أثر هؤلاء العظماء نخالف هؤلاء الذين خالفوا النبي ﷺ والعترة الأطهار صلوات الله عليهم، نخالفهم في ذلك ولا نجتمع معهم على وحدة باطلة فيها ترميز لمن لا رمزية له كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعائشة، ومن أشبه عليهم لعائن الله، فإن هذه وحدة لا يرتضيها الله ولا رسوله ﷺ (1).

وفي رواية أخرى رواها أبو نعيم عن سيدتنا أم سلمة أم المؤمنين صلوات الله عليها أنها قالت: «لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار النجاشي، آمنا على ديننا وعبدنا الله، لا نوذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بعثت قريش عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بهداياهم إلى

(1) هنا نلمع إلى أنه ينبغي التفريق بين الوحدة والتعايش، فالأخير هو الذي ندعو إليه، فنتعايش مع الأقوام الأخرى، ومع الديانات الأخرى، ومع المخالفين من البكرية أو غيرهم. كما أمرنا الأئمة الأطهار ﷺ في رواياتهم كما عن زيد الشحام - في رواية طويلة - قال: «قال لي أبو عبد الله ﷺ: اشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وأدوا حقوقهم...». وهذا لا يعني الوحدة معهم في عقائدهم بحيث يُسكتُ عن باطل رموزهم وارتضاء أفعالهم، فهذه وحدة لا يرتضيها أئمتنا ﷺ، فتدبر!

النجاشي وإلى بطارقتة، أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا، كائنًا في ذلك ما هو كائن، فلما جاؤوا، وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، ثم سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحدٍ من هذه الأمم؟، قال: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنّا قومًا أهل جاهليّة، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام... ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، فعدى علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان»⁽¹⁾.

(1) حلية الأولياء لأبي نعيم ج 1 ص 115.

وقفات مهمة

ولنا فيما ذكر في هاتين الروایتين أربع وقفات مهمة لتفنید هذه الشبهات التي تطرح :

- الوقفة الأولى: أن جعفرًا عليه السلام قال في الرواية الأولى: «إِنَّ نَبِيَّنَا أَمَرَ بخلع الأنداد» وفي الرواية الثانية: «نخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا».
- فهل معنى خلع الأنداد يقتصر فقط على الأصنام والأوثان؟ أم أن له معنى أوسع وأعمق من ذلك؟ هذا الذي تبينه الروايات التالية:

الرواية الأولى: عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما بعث الله عز وجل نبياً حتى يأخذ عليه ثلاث خصال: الإقرار بالعبودية، وخلع الأنداد، وأن الله يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء»⁽¹⁾.

الرواية الثانية: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الله تبارك وتعالى أعطى محمداً صلى الله عليه وآله شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام: التوحيد، والإخلاص، وخلع الأنداد، والفطرة، والحنيفية السمحة»⁽²⁾.

وقد قال العلامة المجلسي رحمه الله في شرحه للرواية الثانية: «كأن المراد بالتوحيد نفي الشريك في الخلق، وبالإخلاص نفي الشريك في العبادة، وخلع الأنداد تأكيداً لهما، أو المراد به ترك اتباع خلفاء الجور وأئمة الضلال، أو نفي الشرك الخفي»⁽³⁾.

فإذن معنى خلع الأنداد لا يقتصر فقط على التبري من الأصنام والأوثان، بل يشمل البراءة من خلفاء الجور وأئمة الضلالة، هؤلاء الذين

(1) التوحيد للصدوق ص 333.

(2) الكافي ج 2 ص 17.

(3) بحار الأنوار ج 65 ص 318.

اغتصبوا الخلافة من أمير المؤمنين صلوات الله عليه: أبي بكر، وعمر، وعثمان، ومعاوية ومن أشبه، عليهم لعائن الله أجمعين.

وهذا المعنى يؤكد ما جاء عن إمامنا الباقر عليه السلام في الرواية التي رواها ثقة الإسلام الكليني عن جابر، قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، فقال عليه السلام: «والله، هم أولياء فلان وفلان⁽¹⁾، اتَّخَذُوهم أئمة دون الإمام الذي جعله الله للناس إمامًا»⁽²⁾.

فإذن معنى خلع الأنداد لا ينحصر في ترك عبادة الأصنام، بل يمتد إلى ترك اتباع خلفاء الجور وأئمة الضلالة. وهذا هو الذي ندعو إليه في منهجية أهل العالم الأول، منهجية البراءة من أعداء الله وأعداء رسوله صلَّى الله عليه وآله⁽³⁾.

(1) أي: أولياء أبي بكر وعمر.

(2) الكافي ج 1 ص 374.

(3) راجع سلسلة تحرير الإنسان الشيعي لسماحة الشيخ الحبيب، وكتاب حل الإشكال.

• الوقفة الثانية: حينما جاء رسول النجاشي إلى جعفر وأصحابه - كما ورد في حلية الأولياء -، قال لهم: «ماذا تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا، كائنًا في ذلك ما هو كائن». أي إنهم سيُصرِّحون بعقيدتهم مهما كلف الأمر^(١).

إن جعفر بن أبي طالب صلوات الله عليه - الذي كان رئيسًا على القوم، وهو الخطيب والمتحدث باسمهم - لم يعمل بالتقية، بل صرح النجاشي بعقيدته. ولو أراد أن يعمل بها لكان في وسعه ذلك، كما يفعل كثير من الناس اليوم، ولكنه لم يفعل، لأن هذا الظرف لم يكن ظرفًا تقيةً، لما يتحلّى به ملك الحبشة النجاشي بشيء من العدل، ولذا أرسل جعفر من قبل النبي ﷺ إليها.

فلو أن جعفرًا ومن معه عملوا بالتقية في هذا الموقف، لكان عملهم بها باطلاً، أي لكانت تقية مغلوبة وليست بشرعية!

(١) إنني أكره أجد من التفت إلى هذا الأمر العظيم الذي فعله جعفر الطيار صلوات الله عليه - بحسب تتبع قاصر -.

وهذه رسالة واضحة لكل من يعيش اليوم في الدول الغربية - التي تتحلّى بشيء من الديمقراطية - وخصوصاً لمن يعتمر العمامة، أنه ينبغي عليهم ذكر مثالب أعداء أهل البيت عليهم السلام على المنابر، فإنه لا موسغ للعمل بالتقية في مثل هذه الظروف، إلا أنك تجدهم يتقون حيث لا تجب التقية، كما ورد عن أئمتنا عليهم السلام (1).

ينبغي أن تُقتفى آثار جعفر بن أبي طالب عليه السلام فأنتم تعيشون في دول تُعلن حرية الرأي والاعتقاد، تماماً كما عاش جعفر في ظلّ ملكٍ نصرانيٍّ عادلٍ وهو النجاشي، فالظروف اليوم تشبه تلك الظروف، وهذه فسحةٌ أعطاكم الله إياها، فمارسوا عقيدتكم وجاهرُوا بها، حتى يعرف أبناءكم وأجيالكم هذه العقيدة السليمة، ويعلموا أن أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة قد ظلموا أهل البيت عليهم السلام.

(1) وسائل الشيعة ج 11 ص 675، وفيه أن الإمام الرضا عليه السلام حجب جماعة من الشيعة، فلما سأله عن ذلك بيّن أن من أسباب حجبهم قوله: «وتتقون حيث لا تجب التقية، وتركون التقية حيث لا بدّ من التقية».

كما ينبغي أن تُدرس سيرة جعفر الطيّار صلوات الله عليه دراسة جيدة ، حتى تتغير تلك المفاهيم المغلوطة عن التقية والتي تفتت - مع الأسف الشديد - في الأمة الشيعية حت أصبحت كالداء!

فإذن قد صارح سيدنا جعفر عليه السلام ولم يدهن، وجاهر بالحق ولم يختبئ خلف التقية المغلوطة، فكان ناطقاً بالحق. قال جعفر عليه السلام للنجاشي: «أيها الملك، كنّا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويُّ منّا الضعيف. وكنا على ذلك حتى بعث الله تعالى إلينا رسولاً منّا، نعرفُ نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. فدعانا إلى الله تعالى لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبدُ نحنُ وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. فعدّد عليه أمورَ الإسلام، فصدّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله

عز وجل. فعبدنا الله وحده لا شريك له، وحرمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا».

• الوقفة الثالثة: أنّ جعفر بن أبي طالب صلوات الله عليه، بعدما صارح النجاشي ومن معه، ظهرت ثمار تلك المصارحة العظيمة وهو أنّ النجاشي - وهو ملك الحبشة - قد أسلم على يديه، واهتدى إلى الإسلام، وصار عبداً مطيعاً لرسول الله ﷺ.

وهذا رد على من يقول: ما الفائدة من هذه المصارحة؟ وما النتيجة من قولكم أنّ أبا بكر وعمر كافران؟ وما الجدوى من التصريح بأنهما ظلما رسول الله وأهل بيته؟ فنقول في جوابنا: النتيجة هي هداية الآخرين!

لقد طلب النجاشي من جعفر عليه السلام أن يقرأ عليه شيئاً من القرآن - كما في الرواية -، فقرأ عليه من سورة مريم: «كهيعص...» فقال النجاشي: بهذا بعث الله عيسى بن مريم عليه السلام، ثم قال النجاشي: يا جعفر، هل تحفظ مما أنزل الله على نبيك شيئاً؟ قال نعم، فقرأ عليه سورة مريم، حتى بلغ إلى قوله: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا، فَكُلِي وَاشْرَبِي

وَقَرِّي عَيْنًا»، فلما سمع النجاشي ذلك بكى بكاءً شديداً، وقال: هذا والله هو الحق، ثم أعلن إسلامه أمام الجميع».

أما عمرو بن العاص فحين سمع كلام جعفر، قال للنجاشي: «أيها الملك، إن هذا مخالفنا، فردّه إلينا! فرفع النجاشي يده فضرب بها وجه عمرو، ثم قال: اسكت، والله يا هذا، لئن ذكرته بسوءٍ لأفقدنك نفسك! فقام عمرو بن العاص من عنده والدماء تسيل على وجهه، وهو يقول: إن كان هذا كما تقول أيها الملك، فإننا لا نتعرض له!»⁽¹⁾.

هكذا يكون المؤمن عزيزاً، وهكذا تكون قوة الكلمة والصراحة في الحق، فإن الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه! أما عمرو بن العاص وأتباعه فأذلاء إلى يومنا هذا!

وأنتم - أيها الشيعة - لا تكونوا خانعين، ولا خاضعين لكل من يستكلب عليكم، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، فالمؤمن حقاً لا يذل نفسه، فالمرء يكون عزيزاً بكلمته، كما كان جعفر بن أبي طالب عليه السلام، فإنه لم يخش، ولم يسكت بدعوى التقيّة أو حفظ النفس، بل صارحهم!

(1) تفسير القمي ج 1 ص 176.

واليوم نحن في زمنٍ تمتلئ فيه الدنيا بمنظمات حقوق الإنسان والعفو الدولية، فما الذي سيجري إذا قيل - على سبيل المثال - أن عمر بن الخطاب لعنه الله قد رفس بطن الزهراء عليها السلام حتى أسقطت محسنًا؟^(١)

والروايات تقول إنَّ النجاشي رضوان الله عليه - بل سلامُ الله عليه - كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله رسالةً ملؤها الأدب جوابًا على رسالة النبي التي حملها إليه جعفر.

وكان مما كتب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وآله من النجاشي الأصحم بن أبجر^(٢). سلامٌ عليك يا نبيَّ الله من الله ورحمةُ الله وبركاته! لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام. وقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فو ربَّ السماء والأرض، إنَّ عيسى ما يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا^(٣) ابن عمك وأصحابه،

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٥ ص ٥٧٧.

(٢) وهذا من أسمى درجات الأدب، إذ بدأ رسالته باسم رسول الله صلى الله عليه وآله، على خلاف عادة الملوك الذين يبدوون عادةً بأسمائهم قائلين: «من الملك الفلاني إلى فلان...».

(٣) قرينا: أكرمنا.

وأشهد أنك رسول الله صادق مصدق، وقد بايعتك وبايعتُ ابن عمك،
وأسلمتُ على يديه لله رب العالمين»^(١).

هكذا إذن كانت المصارحة سبباً للهداية؛ مصارحة واحدة صدرت
من جعفر بن أبي طالب صلوات الله عليه، فأنارت قلب ملكٍ من ملوك
الأرض. وهكذا تكون الكلمة الصادقة دعوة للإيمان، كما قال رسول
الله ﷺ: «لأن يهدي الله على يديك رجلاً، خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس
وغربت»^(٢).

(١) بحار الأنوار ج 20 ص 392.

(٢) الكافي ج 5 ص 28.

عودة جعفر عليه السلام إلى المدينة

بعد ذلك عاد جعفر سلام الله عليه ومن كان معه إلى المدينة المنورة، وذلك في فتح خيبر في السنة السابعة للهجرة.

وجاء في الرواية أن النبي صلى الله عليه وآله لما افتتح خيبر أتاه البشير بقدوم جعفر بن أبي طالب وأصحابه من الحبشة إلى المدينة، فقال صلى الله عليه وآله : «ما أدري بأيهما أنا أسرُّ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر!»^(١). وروى أهل الخلاف أن النبي صلى الله عليه وآله قبله بين عينيه، واعتنقه وبكى بكاءً شديداً^(٢).

(١) بحار الأنوار ج ٢١ ص ٢٥.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٦ ص ٣١٨.

إنَّ فتح خيبر، على عظمتها، لم يُفرح النبي ﷺ بقدر فرحه بقدوم جعفر بن أبي طالب، هذا الرجل العظيم الذي ضحَّى وبذل وهاجر وجاهد في سبيل الله.

وما وصلنا من رواياتٍ وآثارٍ في حقِّه قليل، لكن كل رواية تُبرز لنا شيئاً من عظم مقامه، صلوات الله عليه.

ولم تمضِ إلا أشهرٌ قليلة، حتى بعث النبي ﷺ جيشاً إلى مؤتة لقتال الروم، وجعل جعفر بن أبي طالب أميراً عليهم.

• الوقفة الرابعة: يقول بعض الناس اليوم: الآن ليس وقت الدعوة إلى الإسلام، ولا وقت الدعوة إلى التشييع، ولا فائدة من ذلك، فمن أراد الهداية فسيهتدي بنفسه!

وهذا - لا شك ولا ريب - قول ساذج، فالنبي ﷺ في تلك الظروف، وهو يوجِّه جيشاً لمحاربة المشركين، لم يغفل أبداً عن الدعوة إلى الإسلام، بل جعل أول وصاياهم الدعوة قبل القتال.

فقد روى الواقدي في المغازي عن زيد بن أرقم، أن رسول الله ﷺ قال: «أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله، في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلّوا، ولا تقتلوا وليداً. وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث، فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم واكف عنهم، ادعهم إلى الدخول في الإسلام، فإن فعلوا فاقبل منهم واكف عنهم^(١)، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين. إن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله»^(٢).

فهذه وصايا النبي ﷺ تُظهر أنه حتى في ميادين الحرب كان يقدم الدعوة على القتال، ويعلم أصحابه أخلاقيات الحرب، لا غدر، ولا غلول، ولا عدوان، ولا قتل للنساء أو الشيوخ أو الأطفال.

(١) لاحظ هنا أن رسول الله لا يرسل الجيوش لمجرد القتل والقتال كما يزعم الملحدون، فقد كان ﷺ يوصي أولاً بالدعوة إلى الإسلام.

(٢) المغازي للواقدي ج ٢ ص ٧٥٧.

استشهاد جعفر الطيار عليه السلام

ثم إن المعركة جرت، وكان جعفر بن أبي طالب صلوات الله عليه أمير الجيش وحامل اللواء، فقُطعت يمينه، فأخذ اللواء بيساره، فقُطعت يساره، فاحتضن الراية بعصديه، حتى قُتل، صلوات الله عليه.

وكان النبي صلى الله عليه وآله يحكي على المنبر ما جرى كأنه يراه رأي العين، فقد روى ابن حمزة الطوسي أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، فجاءه الشيطان فمناه الحياة، وكره إليه الموت فقال: الآن حين استحکم الإيمان في قلوب المؤمنين تُمني الدنيا؟! ثم مضى قُدماً حتى استشهد. فصلى عليه ودعا له ثم قال: استغفروا لأخيكم جعفر، فإنه

شهيد، لقد دخل الجنة، وهو يطير بجناحين من ياقوت حيث يشاء في الجنة»^(١).

وكان جعفر عليه السلام من المقبلين غير المدبرين، كرّاراً غير فرّار، كأخيه علي عليه السلام، ليث ضرغام.

وقد قال الإمام الباقر عليه السلام: «أُصيب جعفر وبه خمسون جراحة، خمسٌ وعشرون منها في وجهه»^(٢).

وعن ابن عمر لعنهما الله قال: «وُجد فيما أقبل من بدن جعفر ما بين منكبيه تسعين ضربة، ما بين طعنة برمح وضربة بسيف»^(٣) أي أن كل الضربات كانت في مقدّم جسده لا في ظهره، لأنه كان مقبلاً لا مدبراً.

(١) الثاقب في المناقب لابن حمزة الطوسي ج ١ ص ١٠٢.

(٢) بحار الأنوار ج ٢١ ص ٥٦.

(٣) الاحتجاج للطبرسي ج ١ ص ١٧٢.

وقال الإمام الصادق عليه السلام : «أن النبي صلى الله عليه وآله لما جاءته وفاة جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة، كان إذا دخل بيته كثر بكأؤه عليهما جداً، ويقول: كانا يُحدِّثاني ويؤنساني، فذهبا جميعاً»^(١).

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يذكر جعفراً صلوات الله عليه بحرقه وألماً، خصوصاً في يوم الهجوم على دار السيدة الزهراء عليها السلام، حينما رمق قبر النبي صلى الله عليه وآله وقال: «يا ابن أمّ، إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني!» ثم صاح: «وا جعفرأه! ولا جعفر لي اليوم! وا حمزتاها! ولا حمزة لي اليوم!»^(٢).

وفي رواية أخرى قال عليه السلام : «أما والله، لو أن حمزة وجعفرًا كانا بحضرتيها - أي بحضرة أبي بكر وعمر - ما وصلا إلى ما وصلا إليه، ولو كانا شاهديهما لأتلفا نفسيهما»^(٣).

هكذا كان أمير المؤمنين عليه السلام يرى حاله، ويشكو فقد أعمدة العزّ من بني هاشم، فقد مضى جعفر، ومضى حمزة، ولم يبق معه إلا رجلان

(١) بحار الأنوار ج 82 ص 104.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج 11 ص 111.

(٣) الكافي ج 8 ص 190.

جلفين من قومه: العباس وعقيل، وكانا ضعيفين حديثي عهدٍ بالإسلام،
وكانا من الطلقاء^(١).

لقد كان جعفر بن أبي طالب من أولئك الذين ثبتوا الإسلام في
بداياته، ومن أوائل الذين آمنوا بالنبى ﷺ، ومن أوائل الدعاة إلى
التوحيد، ومن الذين نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وآله في كل معاركه، وكان
حضوره حضورَ الإيمانِ والبذلِ والصدقِ والفداء.

روى شيخنا الصدوق رضوان الله تعالى عليه عن ثابت بن أبي صفية
قال: «نظر سيد العابدين علي بن الحسين عليهما السلام إلى عبيد الله بن العباس بن
علي بن أبي طالب عليهما السلام فاستعبر، ثم قال: ما من يوم أشد على رسول
الله ﷺ من يوم أحد، قتل فيه عمه حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد
رسوله، وبعده يوم مؤتة قتل فيه ابن عمه جعفر بن أبي طالب. ثم
قال عليهما السلام: ولا يوم كيوم الحسين عليهما السلام»^(٢).



(١) نفس المصدر السابق.

(٢) أمالي الصدوق ج ١ ص ٥٤٧.

